

فكاهات

رقائبة

جزء الاحسان (١)

اشتهر احد كبراء الانكليز بالغي الوافر وعمل الخير والاحسان ومساعدة البائسين واغاثة الملهوف حتى لم يكن هناك من لم يحترمه ويدع له بطول البقاء والخير . ولم يكن له سوى ولدٍ وحيد يدعى فيليب رباه منذ حداثة على اطواره واخلاقه آملاً انه عند ما تحنيه الايام وتقيدته الشيخوخة عن السعي يقوم ولده هذا مقامه في تدبير املاكه وضبط ثروته واقتفاء اثره في المبرات والاحسان . ولما بلغ فيليب الحادية عشرة من عمره دعاه والده اليه وقال له قد حان وقت ارسالك الى المدرسة الجامعة لاكمال دروسك وانه ليشق عليّ مفارقتك هذه المدة وانت محل تسليتي وسروري لكن حب مستقبلك يدفعني الى ذلك فكن رجلاً يا عزيزي وجاهد ما استطعت وعد اليّ قبل فناء حياتي لارى خليفة الرد لنكستر ووارث مجده

فبرقت اسرة الغلام وقال ان هذا غاية ما اتناه وما كنت انتظره منك يا والدي وهاء نذا مستعد للذهاب وسأرجع اليك ان احياي الله رجلاً جديداً لا تخجل ان تدعوه ابنك . ثم خفض صوته وحنى رأسه قليلاً

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وقال غير اني قبل ذهابي اسالك نعمةً واحدةً يا ابي فهل تسمح لي بها . قال
سلي ما تشاء يا عزيزي ولورمت ان تجعل فؤادي كرةً تلعب بها لما منعتك .
قال انت تعرف جورج ابن النسالة رفاقي في اللعب فهو يتيمٌ فقير لا معين
له ولا محير سوى والدته المسكينه التي لا تكاد تتمكن من اشباعه الخبز
وقد علمت انه ميالٌ للعلم فانه كثيراً ما قال لي والدموع في عينيه انه
يفضل الموت على ان يبقى جاهلاً وانت يا والدي لديك من المال ما يمكنك
من مساعدة الايتام والمساكين فهلاً حسبت جورج اخاً لي وارسلته وايادي
لتعلم معاً

فلم يملك الوالد عبرته عند هذا الكلام فسمح دموعه ثم رفع ولده الى
صدره وقبله وقال لك ما تحب يا فيليب فاذهب وقل لجورج انك ستأخذ
معك وعلى نفقتك واستعد الآن لتسافرا في اول الاسبوع القادم . فانحنى
الولد على يدي والده يقبلهما ويغسلهما بدموع الشكر ثم اسرع الى صديقه
المسكين يبشره ويتشاطران السرور

وفي الاجل المعين سافر اللرد لنكستر بالولدين بعد ان جهزها بكل ما
يحتاجان اليه فاوصلهما الى المدرسة واوصاهما واوصى بهما ثم ودعهما ورجع الى
زوجته واقاما يتشاكيان مرارة فراق الغلام ويحسبان الايام لرجوعه
وبعد ثماني سنوات اكمل الولدان دروسهما وحصلوا الشهادات
والامتيازات التي استحقاها باجتهدهما وعادا الى الوطن يطفح وجهاهما بالسرور
والبشر . وبعد ان اقاما مدة دعا اللرد ولده فيليب وقال له تعلم اني قد صرت
رجلاً مسناً وعن قليل سيقعدني الهرم عن الاشغال فلا بد لك ان تترشح

لان تنوب عني في تولي مهاتنا وقد رأيت ان اجهزك بالني ليرة تتعاطى بها
اعمال التجارة مدةً من الزمن وقصدي بذلك ان تختبر اخلاق الناس
ومعاملاتهم حتى تعرف كيف تتصرف بينهم في مستقبل ايامك فهل تميل
الى ذلك . قال اني اتعاطى ذلك بكل سرور ولا سيما وان فيه مرضاة والدي
وسروره ومنفعتي في المستقبل لكن يسمح لي والدي ان اذكر له امرأً
واحداً . قال قل يا عزيزي ما بدالك . قال انك قد انعمت على صديقي
جورج بادخاله معي في المدرسة حتى احرز من العلم مثل ما احرزته انا واضحي
بمنزلة ولدك واخ حقيقي لي وقد اصبح الآن في سنٍ وحالٍ هو فيها
احوج الى المساعدة فهل تسمح ان اشاطره المبلغ الذي عينته لي ليكون له
رأس مال يستعين به على معيشته . قال أفعل بكل نفس طيبة وازيدك الفاً
اخرى عوض الالف التي ستقسم لصاحبك جورج ثم دخل مكتبته وقطع
له حوالهً بمبلغ ثلاثة آلاف ليرة فاعطى جورج منها نصيبه . فلم يدر جورج
باي عبارة يشكره على ذلك ثم جاء الى والده اللرد فخيا بتأذّب ثم وقع على
قدميه يقبلها وقال اني قد حرمني الدهر والدي واسباب المعيشة ولكن
الله عوضني اباً شفيقاً أقدر منه على تسهيل سمادتي ورزقي صديقاً هو ابرّني
من الاخ الشقيق فقد جعلتاني من العدم شيئاً ورفعتاني من الفقر المدقع
الى السعادة والرخاء فانا اشكركما ما حبيت ولا اقول اني يوماً ما افي بعض
جميلكما لانني وما لي عبدكما ولكما

ثم استقل جورج بتجارة تعاطاها وخدمه التوفيق فنجح وابدى فيليب
فيما تعاطاه من الاشغال مهارةً وحنفاً عجيبين حتى انشرح صدر والده

وتيقن حسن مستقبل ولده واحياء مجده ومجد أسرته ومن هناك اخذ
 يفوض اليه الشيء بعد الشيء من مهماته واشغاله فقام بها احسن قيام
 وكان فيليب كلما سمحت له الفرص يركب عربة ويجول في انحاء
 المدينة للزهوة وترويح النفس من مشاق الاشغال وبيننا كان كذلك في بعض
 الايام اذ وقمت عينه على نافذة دار لاحد الكبراء فرأى فيها فتاة بديعة
 المحاسن اخذت بمجامع قلبه فلم يلبث ان أخذ بشرك هواها ولبث بعد ذلك
 كلما خرج للزهوة يمرّ بذلك الموضع فيرى فانتته كأنها بانتظاره وكانت
 بالحقيقة قد اصابها مثل ما اصابه من الوله والهيام فلم تعد تستمرئ طعاماً
 ولا تسرّ بشراب بل تنتظر كل يوم موعد مروره فيكفنيان بتصعيد الزفرات
 وارسال سهام الاعين لشق الصدور

وما كان عقب هذا المسك ليختفي عن ذكاء اللرد لنكستر بعد ما رأى
 من ضعف ولده وهزاله فاخذ يستدرجه بما طبع عليه من الرقة
 والتلطف والخنكة المزوجة بالحنو الوالدي الى ان اعترف له بالحقيقة وقال
 لا اكتمك يا ابي انني رأيت فتاة طرحتها التقادير في طريقي والصقتها
 بفؤادي وعلمت انها تجبني كما احبها فاذا جعلها الله نصيبي عشت سعيداً
 واذا حرمنيها الدهر قلت على الحياة السلام . فقال اللرد ان غاية ما اتناه
 يا فيليب انا ووالدتك ان نرى لك شريكه في حياتك تشاطرك احوالها
 وتكفل لك السعادة والهناء بشرط ان تكون من الفتيات الشريفات اللواتي
 لا يضيع بهنّ دم لنكستر فمن هي فانتك يا ترى فان كانت ممن احبهنّ لك
 بذلت وسعي في تسهيل زواجك بها وايقنت اني انحدر الى قبوري بسلام .

قال اني قد بحثت عنها يا والدي وهي مريم ابنة اللرد يُرك ووارثته الوحيدة .
 فلما سمع والده ذلك قطب حاجبيه فقال فيليب ما لي اراك قد استأثت . عفواً
 يا والدي العزيز فاني لا اشترى كل نساء العالم بأن تستاء ولو طرفة عين .
 فقال اني لم استأ يا عزيزي بل اعجب من مهارتك في الانتخاب فليس في
 كل انكثرا من اتماها لك أكثر منها . غير اني تذكرت اطوار والدها وحققه
 عليّ لاسباب قديمة فمسي ان تكون حادثكما هذه سبباً لا بطل الضغائن
 وتجديد علاقات المصافاة

ثم انه في نفس الاسبوع احيا اللرد يُرك ليلة احتفل فيها بعقد خطبة
 فيليب لمريم بمشهد الانسباء والاصدقاء واخذ الخطيبان يتراوران ويوتقان
 علائق الوداد الا ان ذلك لم يكن ليغير اطوار الوالدين فلبنا على ما كانا عليه
 من المقاطعة والتدابير

وبعد مدة استدعى اللرد يُرك صهره وقال له اني احبك جداً يا عزيزي
 فيليب ولا اجعل مقدار ثروتك واقتدارك على ان تعيش في اسعد حال
 ولكن اعلم يا ولدي ان لا حالة تدوم وربما لا سمح الله انقابت بك احوال
 الدهر وذهبت اموالك فهلاً تعلمت صناعة او فناً يقيك من النفاقة ويكون
 سلاحاً لك في وجه النوازل وعوناً على المقادير . فاذا قبلت نصيحتي فاني
 اشير عليك بتعلم الطب فانه صناعة شريفة اذا احتجت اليها تكفل لك
 مستقبلاً سعيداً . قال انه رأيي حسن ونصيحة مقبولة ولكن قال
 ولكن يصعب عليك فراق مريم أفلست رجلاً اولاً يمكنك ان تملك
 ارادتك اربع سنوات مدة تعييك وانا اتيقن ان هذا الغياب يوثق اسباب

حكما ويكون اصلح لزوجكما اذ لا تزالان حديثي السن
وبعد محادثة قليلة وعد فيليب بالاجابة الى رأي حميه بعد استشارة
والديه وحبيته . اما الوالدان فلم يمكنهما الا استصواب الرأي ولو كرهاً واما
مريم فلم تجب الا بسكب العبرات ولم تسمح بسفره الا بعد ان اقنعها والداها
بلزوم ذلك . وهكذا سافر فيليب بعد الوداع وتوطيد عرى الولاء وكلف
صديقه جورج ان يكون وكيلاً للرسائل بينه وبين مالكة فؤاده ولم يكده
يصل الى مدرسته حتى خط لها اسطر الشوق وعبارات الحب وفي اليوم
الثاني ورد عليه جوابها ولم تزل المكاتبات متصلة كل يوم مدة السنة الاولى .
وكان فيليب في الوقت نفسه يجهد قواه في دورسه حتى اعجب به اساتذته
ونزل من قلوبهم منزلة الحب والاکرام

وفي اوائل السنة الثانية اتاه من حبيته كتابٌ يقول فيه « لا تنظر
ياعزيزي فيليب ان اكتب اليك يوماً كالعادة فانه لم يعد عندي ما اكتبه
واني اخاف ان يعوقك اتصال مكاتباتنا هذه عن دروسك ويطيل غيابك
عن محبتك مريم .. » فاجابها فيليب ان كثرة المراسلات لا تعوقه عن
دروسه بل تزيد في رغبته ونشاطه وتقويه على احتمال مرارة الفراق . غير
انه في ذلك الاسبوع لم يحصل على جواب منها فانكسر قلبه وحزنت
روحه وامتنع عن الطعام فذبل ورد وجنتيه وفارقت شفثيه تلك
الابتسامات الحلوة ولاحظ اساتذته ورفصاً وُه حزنه فاجتهدوا جميعاً في
ملاظفته وتسليته . وفي الاسبوع الثاني ورد على فيليب رسالة من صديقه
جورج يقول فيها « لا بد ايها الحبيب انك في قلقٍ لا تقطع مريم عن

مكاتبك واني رأيت فيها هذه المدة تغيراً عظيماً فهي على ما اظن قد مالت
عني الى سواك واني انصح لك ان تقلع عن هواها ولا تهتم بمن لا يهتم
بك فان سلوكها من الآن مع ما فيه من الصعوبة افضل من زيادة تملكك
بها وهي لا تميل اليك . فما كاد فيليب يتم قراءة هذه الكلمات حتى شعر
كأن روحه قد اختطفت من بين تراقيه وسقط لا يعي شيئاً . ولما رآه
رئيس المدرسة امر بنقله الى سريره وعين له طبيباً يتعده وممرضة تسهر
عليه فبقي اسبوعاً كاملاً تحت اشد اثقال الحمى لا يعرف بقاؤه في الحياة
الا من صياحه تحت غيبوبة الحمى بالفاظ متقطعة واسماً مبهمه . ولما اخذ
يتعافى وعلم بوجود الممرضة سألها عن نسبها ووطنها ولما علم انها آتية من
بلده سألها هل تعرف أسرة اللرد يرك فاجابته انها تعرفها . فسألها هل
تعرف ابنتهم مريم فقالت اني خدمت في بيتهم ستة اشهر لتريض والدة
اللرد وقد علمت ان مريم كانت مخطوبة لابن اللرد لنكستر وان خطيبها
سافر لاشغال لم اعلمها ووكل صديقاً له اسمه جورج ليكون واسطة
المكاتبة بينهما وكان جورج يقوم بما فوض اليه بكل امانة . فلما استدعوني
اليهم رأيت جورج المذكور يبذل جهده في الزيارات لمريم وتسليتها وايصال
المكاتبات اليها وكان بعد دخولي بيتهم يظهر لي ميلاً والتفاتاً غير عاديين ولم
تطل المدة حتى اعترف لي بحبه وميله للاقتران بي فاغتررت بكلامه غير
عالة بمقاصده السيئة واعماله الدنيئة . ثم كثرت زيارته لبيت اللرد وكنت
احسب ذلك حسب قوله رغبة في مشاهدتي الى ان قدم ذات ليلة وهو
يهل فرحاً ثم دخل بي الى غرفتي وقال اني قد ادركت مرامي يامرثا . قلت

في ماذا قال فيما اشتغلت به سنةً كاملةً فاني من حين وقوع نظري على مريم احببتها وعزمت على استخلاصها من فيليب بأية حيلةٍ استطعتها وقد وجدت صعوبةً عظيمةً في اوّل الامر لكن طول غياب خطيها خفف من حبهام له حتى امكنتي اجتذاب قلبها وفي هذا النهار حصلت على وعدّها بالاقتران بي . اما اظهاري الحب لك فلم يكن الاّ لمساعدتي في دخولي وخروجي بدون نكير فما انا اودّعك واتمنى لك الخير . وقبل ان اتمكن من مجاوبته تركني وذهب وفي الصباح تأكدت ما سمعت فان مريم نفسها اخبرتني انها احبت جورج وستقترن به في آخر يوم من الشهر الحالي وكان فيليب كمن يسمع الحكم عليه بالاعدام وكانت حرارة الحمى تزيد اضطراب دماغه غير انه تجلّد وقال لها اذا تركت خطيها الاوّل وستزوج ومتى سيكون عقد القران . قالت ميعاد اكليلها مساء غد الساعة التاسعة في كنيسة القديس بولس

ولم يقوَ فيليب على الكلام بعد فسقط في غيبوبةٍ من الحمى المحرقة التي جددها عليه هذا النبا وظننته الخادمة قد نام فخرجت واغلقت الباب . ولما كان المساء استيقظ فيليب فجمع قواه المتضعفة وجهز امتعته وكتب الى رئيسه كتاباً يقول فيه « ان اسباباً مهمة تستدعي ذهابي الى بيتنا حالاً ولو استأذنتك في الذهاب لما سمحت لي خوفاً على صحتي ولذلك اضطررت ان افرّ فاعذرني على خرق القانون هذه المرة الوحيدة . » ثم وضع الرسالة على سريره وانتظر الى ان انتصف الليل فانسلّ في الدهليز الخارجي الى حديقة المدرسة ووثب منها الى الشارع واخذ يجري مدفوعاً بالموامل الفعالة

في دماغه وحرارة الحمى وهو لا يبالي بهزيم الرعد وانسكاب المطر وما زال
يعدو حتى بلغ محطة السكة الحديدية فوجد القطار قد سافر وهو يسمع
صفيحة فضة على يديه تلهفاً وجرى في أثر القطار لعله يدركه ولما رأى عدم
امكان ذلك عزم ان يتابع سيره فاما ان يصل المدينة في الميعاد او يموت في
الطريق . فكان يقع تارة ويقوم اخرى في ذلك الليل المزعج حتى وصل الى
الكنيسة قبل ميعاد الصلاة بثلاثين دقيقة وكانت مفتوحة ومزينة
بالازهار والانوار فانسل بدون ان يُرى واختفى بين ازهار المذبح منتظراً
قدوم العروسين . فلما حضرا وباشر الكاهن رسوم الاكليل خيل للعروس
انها رأت شبح خطيبها الاول فارتعدت فرائصها ولما سألتها الكاهن عن
قبولها جورج بعلاً لها واجابت نعم تحقق لها ان الشبح الذي رآته هو نفس
فيليب . فصاحت صيحة عظيمة وسقطت مغشياً عليها . واغتم فيليب فرصة
انهماك الحضور فخرج مستتراً وتوجه الى بيته وكان والداه خارج البيت
فاوصى الخادم ان يعرفهما بمجيئيه حال رجوعهما . ولما دخل غرفته شعر
بانحطاط قواه فاسرع الى مكتبته وكتب رسالتين في غاية الاختصار الاولى
الى مريم يقول فيها « اني لم ازل الى دقيقة موتي مقيماً على حبك اميناً على
عهودي ولو كان عندك ذرة من الوفاء لما تركتني وانشغفت بجورج الخائن
الذي لم ير ان يكافئ احساني باحسن من هذا . فكفاني انتقاماً منك ان
تكوني زوجة خائن جاحد للجميل وكفاني انتقاماً منه ان له زوجة متقلبة
الاطوار لا تدري معنى الحب . وجل ما اطلب منكما يا قاتلي ان تمرآ على
قبري وتقولوا رحمة الله لقد احسن الينا وكان اميناً . واما الرسالة الثانية

فكانت الى والديه يخبرهما بتفاصيل قصته ويتمنى ان يراها قبل وفاته
ويصبرهما ويعزيهما على فقده . ثم وضع الرسالتين على مائدته ولما لم يعد
قادراً على الحركة انطرح بقرب سريرِه واستعدَّ للموت وهو يتضرع الى الله
من قلب كبير ان يمهلُه ريثما ينظر والديه نظرة الوداع

ولما جاء والدها وعلمها برجوعه اسرعا الى غرفته ولما بلغا الباب امسك
الورد بذراع زوجته وقال لها لا تقطعي صلاته ولننظر هنيئاً اما فيليب
فكان يسمع كلامهما وهو غير قادر ان يبدي اقل اشارة ولما طال الوقت
ورأت والدته الحالة التي كان فيها لم تستطع صبراً فدخات والقت نفسها على
ولدها ففتح فاهُ كمن يحاول الكلام ثم فاضت روحه بين ايدي والديه

.....
وبينما كانت كوئوس الافراح دائرة في بيت جورج وصات رسالة فيليب
فقراءتها مريم وهي غائبة الرشد ثم صرخت نعم انا الخائنة انا القاتلة فقد
قتلته بيدي . كلا يا جورج لن اكون عروساً لك فاني قاتلة وانك خائن
وقاتل . فاسرع جورج واختطف الرسالة من يدها ولما قرأها فقد عقله من
تبكيك الضمير فتناول مسدساً وقبل ان يتمكن احدٌ من امساكه الهب برصاصه
دماغه . وفي اليوم الثاني خرجت مريم الى دير لآخوات الرحمة فاقامت
به وبعد ان مضت عليها عشرة ايام دخلت الراهبات غرقها فوجدنها ملقاةً
على سريرها جثة بلا روح وبجانبها وصاتها الاخيرة تناشدهن فيها ان يدفنها
في قبر فيليب وان يُنقش على ضريحها « لم تجمعنا الحياة فجمعنا الموت »